الفصل الثاني : الشريعة والمجتمع .

المبحث الأول : المجتمع والعقيدة

لا يكون الفرد مسلما حتى يشهد ألاّ إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ،

المجتمع الإسلامي أو المجتمع المسلم، هو الذي تتمثل فيه كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" كقاعدة أساس بكل مقتضياتها، إذ إنه من غير تمثّل هذه القاعدة ومقتضياتها فيه، لا يكون المجتمع مسلمًا. وبناء على ذلك فإن هذه القاعدة تصبح المرتكز الأساسي لمنهجٍ كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيره، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياةً إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة " لا إله إلا الله " أو قامت على قاعدة أخرى معها.

و من حيث إن ثقافة هذا المجتمع قائم على أساس التوحيد فإنه لا ينفي الاختلاط الثقافي ولا الانفتاح والتفاعل مع ثقافات أخرى ، وأخْذ الملائم والنافع من تلك الثقافات، فأبو هريرة رضي الله عنه أخذ من الشيطان كما ورد في البخاري من حديث أبي هريرة لما قال له الشيطان : إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ» "[1].

ولكن لا يعني هذا أخْذ كل ما هب ودب من تلك الثقافات ولو كانت مخالفة لـــ لا إله إلا الله ، والتي هي قاعدة العبودية لله وحده في كل الأمور ، وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية وفي الشرائع القانونية ونظم الحكم .

إن الإسلام والمجتمع المسلم في تعامله مع الواقع البشري، يتعامل بأسلوب النقد والبناء المنظم، فهو لا يهدم ولا يلغي كل ما هو موجود، كما أنه لا يقبل بكل ما هو موجود على

---

(١) أخرجه البخاري في **صحيح البخاري** ، كتاب فضائل القرآن - باب فضل سورة البقرة ، ط١ برقم (٥٠١٠) ١٨٨/٦

obeikandi.com

عِلاّته، ولا ينتقي من هذا وذاك، إنما منهجه قائم على إصلاح هذا الواقع البشري وإنشائه على منهجه القائم على التصور الاعتقادي الإسلامي

وهذه القاعدة تسود وتعم كلَّ النظم الاجتماعية ، فليس عبدًا لله وحده من لا يعتقد في وحدانية الله سبحانه وتتريل هذه الوحدانية على حياته الاجتماعية كلها، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ (النحل:٥١-٥٢)،

وقال تعالى: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ يوسف:٤٠). وعليه فالمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه العبودية التامة لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم ، كما تتمثل في نظامهم الاجتماعي وتشريعاتهم، وتخلّف أي جانب من هذه الجوانب يؤدي إلى تخلف الجوانب الأخرى .

والتصور الاعتقادي الإسلامي، هو الذي ينشأ من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الربّاني، والذي يتعرف به الإنسان على خالقه ومولاه وعلى حقيقة الكون الذي يعيش فيه غيبِه وشهوده، وحقيقة الحياة التي ينتسب إليها غيبِها وشهودها، وحقيقة نفسه؛ أي لحقيقة الإنسان ذاته... ليعلم سر وجوده في هذه الحياة ، ولماذا خلقه الله ؟

العبودية لله : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦)

الاستخلاف في الأرض : ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ (البقرة : ٣٠)

إعمار الأرض : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ (سورة هود: ٦١).

وعليه يصبح تعاملُه مع ربه تعاملاً تتمثل فيه عبوديته لله وحده، وتعامله مع الكون ونواميسه، ومع الأحياء وعواملها ومع أفراد الجنس البشري وتشكيلاته ، تعاملاً يستمد أصوله من دين الله كما بلّغه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تحقيقًا لعبوديته لله وحده في هذا التعامل وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كلّها .

والمجتمع المسلم أو المجتمع الإسلامي، لا ينشأ حتى تقوم جماعة من الناس تقرّر أن عبوديتها الكاملة لله وحده ، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد، والعبادات، والشعائر، ثم تأخذ في تنظيم حياتها وفقًا لهذه العبودية الخاصة. "فالمجتمع المسلم ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك، من الظلمات إلى النور ، ثم تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظامها الحياتي والاجتماعي على أساس هذه العبودية ، وعندها يتم ميلاد مجتمع جديد مشتق من المجتمع القديم مواجه له بعقيدة جديدة ونظام للحياة جديد، يقوم على أساس هذه العقيدة وتتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"[1]،الذي يسعى إليه المجتمع المسلم وأفراده، هو تحقيق الصورة المثالية للإسلام، والتي هي قابلة للتطبيق الواقعي، وجهد المسلمين يتجه إلى تحقيقها في أرض الواقع.

ولا يعني بحال تقرير جماعة من الناس أو انتقال هذه الجماعة ، أن هذا البنيان الجديد لهذا المجتمع، قد نشأ عبر تطور حضاري أو عادات وتقاليد لهذه الجماعة، أو لتغيرات حدثت في نظامها الاجتماعي بصور تلقائية حتمية ، وإنما يعني أن هذه الجماعة قد آمنت وانصاعت لله وحده وللرسالة السماوية التي جاء بها الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم-، أو المحبين لهذه القواعد من بعده من حيث إيمانهم بها ودخولهم في هذا الدين ، بمعنى أن المجتمع الإسلامي يستوعب في داخله كل داخل في هذا الدين عاملاً بمقتضياته على مر العصور سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو مجتمعات بأكملها ، وهذه هي طبيعة المجتمع من حيث استيعاب الجماعات الجديدة لأن الانتماء لن يكون لأحد بل يكون للدين فقط .

إذا افتخروا بأنسابٍ وعزٍ ** فللإسلام عزي وانتسابِي [2]

وعليه لا يُفهم الأمر على أنه مجتمع تقوم فيه العلاقات والمعاملات على أساس من العرق أو اللغة أو أي شكل من أشكال العلاقات الأخرى، بل يمكن القول أنه انتماء عقدي قائم على معتقد واحد غير متعدد ، وتصبح خصائصه مبنية على قوة الاعتقاد الديني ، وقوة

---

(١) سعيد حوى ، الإسلام ، ص٥٩

(٢) من نظم الباحث من بحر الوافر

البناء الاجتماعي النابع من الشريعة الإسلامي، المتلائمة مع الفطرة البشرية ، والخالق لا شك أعلم بخلقه وما يصلح لهم : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤) ، وعلى هذا فالدين الإسلامي يواجه الواقع البشري الموجود ويزنه بميزانه فيقر منها ما يقر ويلغي منها ما يلغي ويعدل منها ما هو في حاجة إلى تعديل، وينشئ واقعًا كاملاً متكاملاً قائمًا على أصوله .

obeikandl.com

المبحث الثاني : إعمار الأرض

فإن الله –سبحانه وتعالى– استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته، والناس في ذلك شركاء ، والمسلمون ينفذون أمر الله ومقاصده ، قال الله تعالى: هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (سورة هود: ٦١) ،

والاستعمار: معناه التمكين والتسلط، كما هو واضح من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ "(سورة الأعراف :١٠). وقوله عز شأنه:

"﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (سورة البقرة : ٢٩) ، وقوله عز شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٣ سورة الجاثية)، وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ﴾ (سورة البقرة : ٢٢) وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (سورة طـــه: ٥٣) ، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (سورة الملك :١٥).

واللام في (لكم) تفيد الاختصاص على جهة الانتفاع للمخاطبين، أي أن ذلك مختص بكم، مما يدل على أن الانتفاع بجميع مخلوقات الأرض، وما فيها من خيرات مأذون فيه، بل مطلوب شرعاً.

والأمر في قوله تعالى : فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه للإباحة ، ولكن التقديم لهذا الأمر بقوله تعالى : هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فيه امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن في هذا الأمر مع الإباحة توجيها وحثا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب ؛ لتسخيرها وتذليلها ، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها [1].

---

(١) الشنقيطي ، **أضواء البيان** ط١ (٢٣٨/٨)

واعتبر الفقهاء تعلم أصول الحراثة والزراعة ونحوها مما تتم به المعايش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية، لأن كل فرد من الأفراد عاجز عن القيام بكل ما يحتاج إليه،

وخصصوا كتبا و أبواباً معيناً للكلام عن (إحياء الموات) كما في المغني لابن قدامة [1]، أو بتعبيرنا (استصلاح الأراضي المتروكة) كما فصلوا في بحث (الزكاة) أحكام المعادن الجامدة والسائلة والركاز .

وحض الإسلام عموماً على الضرب في الأرض (أي السفر التجاري) والسعي الحثيث في مناكبها، والتنقيب عن موارد الرزق في البر والبحر، والإنشاء والتعمير وتوفير أسباب المعيشة والتنافس المشروع في كسبها، والتسابق في الخيرات كلها دنيوية أم أخروية؛ لأن معنى استخلاف الله للبشر وخلافتهم عن الله في الأرض يتطلب طاعة المستخلف طاعة كاملة ، ولأن السيطرة على الأرض بتمكين الله للبشر تقتضي استغلال كل أوجه الخير فيها من علوم شرعية وعلوم اجتماعية وبيئية وفلكية واستنبات الزرع ، وإحياء الضرع ، وتشجير الأشجار، واستخراج المعادن والزيوت، واستثمار المناجم والمحاجر والمقالع وإقامة المساكن والمصانع والقرى والمدن حتى يعرف بكل ذلك ونحوه عظمة الله وقدرته؛ لأنه هو مانح الحياة لكل الموجودات.

وذلك على النقيض تماماً من الاتجاه المادي القاتم الذي يوجه الناس نحو الشعور بألوهية الإنسان لسيطرته على الطبيعة ومواردها، ولتقدمه العلمي والتقني والفني، مما يؤدي إلى عبادة المادة ويورث الإنسانية كثيراً من القلاقل والاضطرابات، والعداوة والبغضاء والحروب المدمرة.

لذا فإن عمارة الأرض واستغلالها يتقيدان في الإسلام بطاعة الله والاهتداء بهديه والامتناع عما نهى عنه، والاعتقاد بأن الناس جميعاً شركاء في منتجات الطبيعة المباحة، فكان

---

(١) ابن قدامة المقدسي ، **المغني** ، ط ١ (٤١٦/٥)

لا بد لهم من التراحم والتعاون في العمل والنتاج بدون تخصيص، أو تمييز البشر في الجنس أو اللون أو العنصر...

ومن ثم فليس في الإسلام مجال للحقد أو الاستئثار أو الاستعمار بالمعنى الشائع اليوم، أو حجر الآخرين عن الانتفاع الحر بالأرض ، لأن البشر هم خلق الله، وأحب خلق الله إلى الله أنفعهم لعياله، فلا معنى لاستغلال جنس من الأجناس ، أو بلد من البلدان لجنس آخر أو بلد آخر، قال تعالى﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(٢٠ سورة الروم).

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ "(٦٠ سورة يـــس).

قال الماوردي: (القاعدة الخامسة من القواعد التي تصلح بها الدنيا: خصب دار تتسع النفوس به في الأحوال وتشترك فيه ذوو الإكثار والإقلال، لكون الأسعار رخيصة فيقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدنيا، وانتظام أحوالها، ولأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والسخاء)[1].

و يقدم الإسلام أروع صورة لعمارة الأرض في ظل ثقافة التوحيد لله والاستخلاف للإنسان ، في داخل إطار المشروعية العليا الإسلامية، ألا وهى العدل المستمد من التوحيد، فلقد شاءت إرادة الخالق عندما خلق الكون وسخره للإنسان أن يحدد الطريق لإعمار الأرض ضمن إطار من الأحكام:

فهناك الأحكام المتعلقة بالضرورات وهذه ثابتة لا تتغير، والأحكام المتعلقة بالحاجيات كرفع المشقة، وبالتحسينات الملائمة للذوق، وهذه شديدة المرونة على حسب الأحوال، وأرسى بذلك قواعد النظام الاجتماعي في المجتمع المسلم؛ ليكون هديا لبني الإنسان في كل مكان وزمان.

---

(١) أ. د. وَهْبَة بن مصطفى الزُّحَيْلِيّ **الفقه الإسلامي وأدلته الفِقْهُ الإسلاميُّ** ط١ (٨ / ٤٩١-٤٩٤) بتصرف.

obeikandi.com

وليس من شك في أن عبادة الله هي الأصل والأساس إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) .

ولكن العبادة المقصودة بحكم النص القرآني أن الإنسان العابد لا بد أن يكون عاملا منتجا، باعتبار أن العمل الجاد هو السبيل لإسعاد الفرد والجماعة، وفى هذا يقول الله سبحانه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة الحج : ٤١) .

كما يقول﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧٧ سورة القصص)، ويقول: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠ سورة الجمعة).

وكما أن الدين دعوة للتراحم والمودة فإنه كذلك دين وسط يدعو للعمل والإنتاج، ليعمر الكون، ويعيش الإنسان في خير وسعادة عندما يعمر نور الإيمان قلبه، ويحصن نفسه ويهذب أخلاقه، فيحيا في عمله، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(سورة التوبة ١٠٥:) ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٨٧) ، وليس أبلغ من هذا موازنة بين المادة والروح وبين الدين والدنيا، فكما أن الالتزام العام بفروض الكفاية يؤدى إلى التضامن بين أبناء الأمة، كذلك فإن الإنسان بالعمل يكون قدوة للآخرين فقد ثبت أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) رواه البخاري.

فليس في الإسلام دعوة إلى الرهبنة أو نكران للمتع الحلال المباحة، وإنما هو دعوة صريحة للعمل الذي يتحقق به الإعمار الذي يعود بالخير على العالمين.

إن مزية الإسلام العظمى في مجال إعمار الأرض أنه جعل الأمر موازيا بين الإعمار الحسي الفعلي والإعمار المعنوي الذي هو عمارة الأرض وحفظها من الفساد بالجهاد ودفع

الظلم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلها تكاليف ربانية أمر بها الله، لأنه يعلم أن فيها صلاح الحياة والإنسان، وهو الذي خلقه ويعلم ما يصلحه وما يصلح له: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤) .

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (الحج : ٤١﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف: ١٠ -١١) .

وكذلك فإنه -وهو يوجه الإنسان إلى عمارة الأرض، والاستمتاع بالطيبات فيها- لا يتركه يغرق في حمأة الشهوات، لأنه عندئذ يترهل ويفسد، ويستثقل التكاليف التي يتطلبها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، لأنها تبدو في حسه موانع تعوق الإنسان عن المتاع: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ ﴾ " (التوبة: ٤٢).

" ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة: ٨٦-٨٧).

وإنما يعمل الإسلام على أن يقوم الإنسان متوازناً بين عنصريه المكونين له: قبضة الطين ونفخة الروح ، عاملاً في الدنيا وعاملاً للآخرة في ذات الوقت: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك : ١٥)

وقد جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك في قوله: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[1].

---

(١)أخرجه مسلم في **صحيح مسلم** كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة وترك العجز ط١ برقم (٦٩٤٥) ٥٦/٨.

فالمؤمن القوي في إيمانه ونشاطه ، وفي عمارته للأرض بالعلم والعمل والدعوة والنفع خير من المؤمن الضعيف ، وفي كليهما خير .

جاء في سنن أبي داود بإسناد صحيح قال -صلى الله عليه وسلم- في أمر الدنيا وعمارتها: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل)[1].

وفي هذا الحديث مبالغة في الحث على إعمار الأرض ولو تيقن المرء أنه لن يستفيد أحد من عمله لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به فاغرس لمن يجئ بعدك لينتفع، وإن لم يبق من الدنيا إلا دقائق معدودة ، وذلك بهذا القصد لا ينافي الزهد والتقلل من الدنيا .

هذا معنى عمارة الأرض وإصلاحها، لتكون حياة المسلم حياة عامرة بالخير، مليئة بالبناء الإيماني والبناء الدنيوي، ليدخل المسلم في الإسلام كافة، ولا يكن منه في زاوية ضيقة، إن فهم الإسلام على أنه دين التبتل والرهبنة وأنه يدعو إلى ترك الحياة كلياً فهم خاطئ، إنما يمقت الإسلام الخنوع والخضوع إلى زهرة الحياة الدنيا وجعلها كل شيء، والقتال من أجلها والعداوة البغضاء لها، أو أن تكون الدنيا هي المسيطرة على حال الإنسان فينسى بذلك الأخلاق العلية والصفات التي ترفعه إلى درجة الإنسان العابد لله رب العالمين..

ولقد ملك في هذه الدنيا أنبياء وصالحون مصلحون فعم بهم الخير، واستنارت البشرية بحكمهم، وسعدت المعمورة، أمثال نبي الله سليمان عليه السلام والعبد الصالح ذي القرنين، ونبي الله يوسف عليه السلام فإنه كان مسؤولاً كبيراً في دولة ملك مصر وكان له فيها تصرف في الأموال، ومع كل هذا لم ينسوا الله ولقاءه، ولم تشغلهم الدنيا عن العمل للدار الآخرة، بل كانوا مع مُلكهم ونبوتهم من أفضل عباد الله تقربا إليه، وعبادة له وإحسانا إلى خلقه.

---

(١)أخرجه أبوداود في **سنن أبي داود** برقم (٢١٨١) ٣ / ٥٤٥. صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩) ٨٣/١

وهكذا يفهم الإسلام ، كما فهمه السلف الصالحون، وليكن لنا محطة قوية وشعلة نيرة ترينا الطريق الصحيح في هذه الحياة الدنيا حتى نلقى الله رب العالمين..

obeikandl.com